

قصة الرياضيين الشعاعين

أبي اليسر الرياضي المتوفى سنة ٢٩٨ هـ

وَبْرِيه بن أبي اليسر الرياضي المتوفى سنة ٣٤١ هـ

زاهر أحمد عبيد

من لا يداري الناس قلّ صديقه

ومن ذمهم كان القصي المـــــــذمّ

ومن بين الاخوان لا يكرمونه

ومن يلم الاخوان كان ملومــــا

أبو اليسر الرياضي

أشـــــــدّ شيء على نفس الكرم إذا

مارام مدح لثيم عند حاجته

وأعظم الناس حزنــــاً من يقل له

مالاً ويعظم منه قنــــدٌ نسبته

بريه بن أبي اليسر الرياضي

عثرت لدى والدي في مطلع عام ١٤٠٠ هـ ، على كتاب مخطوط ،

يقع في ثمان وعشرين ورقة ، بدون غلاف أو تاريخ ، أستطيع نسب

خطه وورقه إلى القرن الخامس من الهجرة .

نُسخ على وجه الورقة الأولى منه : « كتاب الحاميّة ويعرف

بالنصوريّة » ، ويشتمل على اثنتين وتسعين مقارنة بين حكَم نثريّة

لأرسطوطاليس من جهة ، وبين حكَم شعريّة للمتنبي ، مضافاً لكلّ

مقارنة منها بيت أو أكثر من أشعار « الرياضي » في المعنى ذاته .

استفسرتُ من والدي عن أمر هذه المخطوطة (وكان يزرع في حينه

تحت وطأة مرض شديد) ، وكلّ ما استطعت معرفته منه آنذاك ، أنّها

نسخة تكاد تكون فريدة ، وأنه قد اقتناها من صديقه سامي أمين

الخانجي بالقاهرة ، في أواخر عام ١٣٧٩ هـ ، ولم يتح له الوقت الكافي منذ ذلك ، لتركيز بحثه عن هويّة شاعرنا هذا ، الذي لم تذكر المخطوطة عنه سوى أنّه « الرياضي »

اقتنصتُ كلّ دقيقة سمحت بها ظروفُ أعمالي ، وأكبيتُ على البحث عن شاعرنا « الرياضي » في جميع المصادر المعروفة ، مروراً بالعلاقة الكبيرة لمحتوى كتابنا « المنصورية » بالرسالة الحاتميّة المشهورة ، وما يتبع ذلك من صلة بين تسميته .. وبين « المنصوريين » من الخلفاء ، ومن اشتهر من شعرائهم ؛ وكذلك بحثتُ عن صلة المتنبّي الكبيرة بهذا الموضوع ... ، إلى آخر ما هنالك من اعتبارات أخرى وافتراضات ، فتوصّلتُ إلى النتائج التالية :

١ - لم أثر على أيّ ذكر لكتاب « المنصورية » في أيّ فهرس من فهارس المخطوطات المتداولة .

٢ - وأمّا الرسالة الحاتميّة ، فلقد أحصيتُ وجود اثنتين وعشرين مخطوطة منها ، موزعة في مختلف المكتبات العامّة والخاصّة في العالم ، جعلتها في جدول منفصل ، بالإضافة إلى أربع عشرة مطبوعة ، أفردت لها جدولاً خاصّاً أيضاً .

٣ - ولم يرد في أيّ من هذه المخطوطات والمطبوعات ما يُشير إلى كتابنا « المنصورية » من قريب أو بعيد .

٤ - لم أجد في المراجع المتوفرة كلّها سوى « رياضي » واحد ، هو أبو اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني البغدادي ، المعروف بـ « الرياضي » ، المتوفّى سنة ٢٩٨ هـ ، أي قبل ولادة المتنبّي (٣٠٣ هـ) بخمس سنوات ، وقبل بدء حكم الخليفة المنصور بالله الفاطمي (٣٢٤ هـ) بستّ وثلاثين سنة ، وقبل قدوم الحاتميّ محمد بن

الحسن المظفر (صاحب الرسالة الحاتمية) بغداد (٢٠٨ هـ) بعشر سنوات .

هـ - ولأنّ أبا اليسر إبراهيم الرياضي كان شاعراً وأديباً ، فإنّه لم يكن أمامي سوى محاولة إيجاد رابط ما ، بينه وبين كتابنا « المنصورية » ، رغم المتناقضات الزمنية والتاريخية الأنفة الذكر . غير أنني لم أهدئ إلى أية صلة من هذا القبيل ، أستطيع إقناع نفسي بها أكثر من ساعات أو أيام في أفضل الأوهام .

وبينما أنا في تلك الحال من اليأس ، خطرت لي فكرة الإعلان عن هذه المخطوطة في مجلّة مجمع اللغة العربيّة الغراء بدمشق ، فعسائي أجد من يدلّني على ما عجزت عنه ، أو يسهّل لي طريقه ، فكان نشر ذلك الإعلان في الجزء الرابع (ذو القعدة ١٤٠٠ هـ) من المجلد الخامس والخمسين . وتمّ ذلك بتشجيع من الاستاذ الدكتور حسني سبح ، رئيس مجمع اللغة العربيّة بدمشق .

وبالإضافة إلى هذه الاستغاثة بالإعلان المذكور ، شرعت أستفسر عن رياضينا الشاعر ، من كلّ من عرّف عنه طول الباع في هذا المجال ، من أصدقاء ومعارف ، حتى في أثناء رحلاتي العديدة في بعض الأقطار العربيّة ،

ومضى الشهر تلو الآخر ، وأنا لأزال عند النتائج السابقة ذاتها ، رغم كلّ المحاولات ، وتواصل البحث ، ومواصلة المراجعات والتدقيق ، ورغم انتهائي من تحقيق كتاب « المنصورية » ... إلى أن أذن الله بالفرج المطلوب .

فما إن منّ الله تعالى علينا بمعجزته في تماثل والدي للشفاء البطيء ، حتى عاد تدريجياً إلى مكانه الطبيعي المعتاد ، بين كتبه وأوراقه ، يستردّ

بواسطتها ماسلبه المرض من دماء العافية وماء الحياة ، ويردّ إليها روحه المتعطّشة شوقاً وحبّاً وإخلاصاً لها ، بعد انقطاعه المضي الطويل . فأصبحت لأراه إلا مستغرقاً في بحثٍ أو تعليق أو تحقيق ، مُتِّمّاً بعض ما كان على وشك إنجازهِ ، أو شارعاً في كتاب جديد .. ، تارة ينهمك في الكتابة ، وأخرى في التدقيق والمراجعة إلى أن لفت شقيقي رجاء انتباهنا في مطلع عام ١٩٨٣ ، إلى مضيّ خمس وسبعين سنة على تأسيس والدي مكتبته « المكتبة العربية بدمشق » ، فكان قراره بهذه المناسبة « نشر ما انطوى من أشعاره » طوال عقود من الزمان وكان ذلك بداية التقدم في بحثي عن شاعرنا المجهول « الرياضي » .. رغم ما بين الموضوعين من بُعد وانقطاع صلة .

إذ بينا نحن - والدي وأنا - نكتب ونراجع ونبحث ونتباحث ، على مكتب واحد ، وبغرفة واحدة ، كعادتنا في السنوات العشر الأخيرة عندما أكون بدمشق ، وكنا في هذه المرّة نجمع ونرتّب ما يرغب والدي في نشره من شعره ، الذي كان بعضه محفوظاً في قصاصات صحفٍ ومجلات عربية منذ مطلع القرن العشرين ، وبعضه اليسير خلف أوراق روزنامته الشهيرة التي يصدرها منذ أكثر من سبعين سنة (التقويم العربي الهاشمي) ، وإذ به يناولني ورقة من أوراق ذلك التقويم ، دون أن ينبس بحرف واحد .

ولم يكن التاريخ على وجه تلك الورقة ، الأربعماء ١٣ / ٥ / ١٩٧٠ ، ليعني لي أي شيء ... ، غير أن ما قرأته على ظهرها كان مفاجأة كبيرة لي ، لم أكن أتوقعها بتاتاً ، وها هو نصّ ما وجدت :

كلّ الدواب لها مرعى يؤالفها تنمو به ويكون الخير عقبهاها
وسفلة الناس أعراض الكرم لها مرعى ولكن خبث الرعي مرعاها

بُريّه بن أبي اليسر الرياضي

وما إن انتهيت من قراءة ذلك ، مع متابعة والدي قراءة ما كان يظهر على وجهي من أثر هذا الكشف ، حتى أخبرني بأنه أنتخب هذين البيتين من مخطوطة زود المكتبة الظاهرية بدمشق بها في مطلع عام ١٢٨٠ هـ ، وهي من تصنيف شاعرنا « بُرَيْه بن أبي اليسر الرياضي » ، ذاته ، كما تذكر أيضاً ، بأنه كان قد زود المكتبة الظاهرية بنسخة أخرى منها في أواخر عام ١٢٧٠ هـ ، إلا أنه لم يتذكر عنوانها تماماً ؛ وطلب مني البحث عن اسم ذلك الشاعر في موسوعة بروكلمان تاريخ الأدب العربي ، ففعلت ، ووجدت اسمه مصنفاً تحت الحرف « ب » ، وعثرت على عنوان كتاب واحد فقط من تأليفه ، هو « كتاب تلقيح العقول » . وكان مرجع بروكلمان في ذلك : الحاجي خليفة (كشف الظنون ١ : ٤٨١) . وبينما هممت أبحث في ذلك المصدر الأخير ، تناول والدي الجزء الأول (ص ١٣٥ - ١٣٦) من فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق ، قسم الأدب ، فوجد فيه ضالتنا المنشودة ، عن رقم ووصف كل من نسختي كتاب تلقيح العقول ، وعن اسم المصنف « بُرَيْه بن أبي اليسر الرياضي » ، وبذيل ذلك الملاحظة التالية : « قرأ النسخة الأستاذ أحمد عبيد وعلق عليها بقلم رصاص حديث ، وتدلّ تعليقاته على سوء ضبط النسخة وتصحيفاتها » .

ونتيجة لما تقدم ، فلقد انفتح أمامي كل ما كان مغلقاً . فحصلت على صورة لكل من نسختي « كتاب تلقيح العقول » من دار الكتب الظاهرية بدمشق ، وشرعت في بحث الموضوع ودراسته من أوله مرة أخرى ، على أساس متين وعميق ، إلى أن توصلت إلى ترجيح مايلي :

أ - إن اسم مصنف كتاب تلقيح العقول ، هو « بُرَيْه » وليس « بَرِيَّة » كما جاء في المصادر القليلة المذكورة . و « بُرَيْه » هو تصغير

إبراهيم ، حسب ماجاء في القاموس المحيط ٤ : ٢٨١ (بره) ، [وقال الصغاني في التكملة (بره) : « وقد سَمَّوا بُرَّيْهاً مصغراً ، فيحتمل أن يكون تصغير إبراهيم ، ويحتمل أن يكون اسماً برأسه]

٢ - بُرَّيْه بن أبي اليسر الرياضي ، هو « إبراهيم الصغير » ، ابن إبراهيم بن أحمد ، أبي اليسر ، الشيباني ، البغدادي ، المعروف بالرياضي ، وتاريخ وفاتها يدعم هذا الترجيح .

٣ - لاوجود لإبراهيم بن محمد ، أبي اليسر ، الشيباني ، البغدادي ، المعروف بالرياضي ، الذي ورد ذكره في (معجم المؤلفين ، كحالة ، ١ : ٩٧) نقلاً عن « البيان المغرب لابن عذارى المتوفى سنة ٦٩٥ هـ » ، وفي (الأعلام ، الزركلي ، ١ : ٦٠) نقلاً عن « صدور الأفارقة لحسن حسني عبد الوهاب ، المتوفى سنة ١٣٨٨ هـ » فكلا الترجمتين المنسوبتين لإبراهيم بن محمد الرياضي ، في هذين المصدرين المذكورين ، هما في الواقع لابراهيم بن أحمد الرياضي ، بدلالة تطابق سنتي الولادة والوفاة ، ولتطابق الترجمة الكاملة ، بما فيها أسماء مؤلفاته المعروفة ، مع ترجمة إبراهيم ابن أحمد التي وردت في نفح الطيب ٢ : ١١٥ و ١١٦ ، وفي إيضاح المكنون ١ : ٧٠ و ٢ : ٩ و ٢٣٤ و ٤٠٨ ، وفي معجم المصنِّفين ٣ : ٦٥ ، وفي تكملة الصلة ١ : ٢١٠ ، وفي هدية العارفين ١ : ٤ ، وفي معجم المؤلفين ١ : ٥ ، وفي الأعلام ١ : ٢٨ ، وغيرهم .

٤ - إن كتابنا « المنصورية » هو لاشك من تصنيف شاعرنا بُرَّيْه بن أبي اليسر الرياضي . ومعاصرتة للخليفة الفاطمي : المنصور بالله ، وصلته به (حسب ماجاء في مقدمته لكتاب تلقيح العقول) ، تفسر تسمية كتابنا بـ « المنصورية » .

٥ - إن مخطوطتنا « المنصورية » ، هي فريدة بالفعل ، كما سبق

أن أشار والدي ، ولم أجد لها أي ذكر ، ولو بالتلميح ، في أيّ من المراجع وفهارس المخطوطات المعروفة ، رغم وفرة عددها .

٦ - هناك كتاب ثالث لـ « بُرَيْه الرياضي » ، غير « كتاب تلقيح العقول » و « المنصورية » ، وهو في الأمثال السائرة والأبيات النادرة .

ولقد أشار شاعرنا بُرَيْه إلى ذلك ، في مقدمته المذكورة لكتابه « تلقيح العقول » عندما قال : « كان عبد أمير المؤمنين أعلى الله ذكره ، ألف كتاباً في الأمثال السائرة والأبيات النادرة ، في كتاب ممتع (!) ، وهو الذي كان أهدها إلى أمير المؤمنين المنصور بالله ، قدس الله روحه ، وصلى عليه ، انتهى فيه إلى مقدار الطاقاة في ذلك الوقت » .

٧ - لم أعتز على أيّ أثر أو دليل ، مخطوط أو مطبوع ، يكون قد ظهر أو نُشر فيه شيء من أشعار « بُرَيْه الرياضي » حتى الآن ، سوى مخطوطتي « المنصورية » و « تلقيح العقول » إضافة إلى ورقة التقويم العربي الهاشمي الآنف الذكر .

٨ - أمّا ما يتعلق بأشعار الرياضي الوالد ، أبي اليسر ، فلعلّ الأبيات اليسيرة التي رواها « بُرَيْه » عنه في « تلقيح العقول » هي أول ما يُعرف من أشعاره حتى الآن ، رغم شهرته وتعدد مؤلفاته ووفرة المصادر التي أوردت ترجمته وأخباره . وذلك بسبب عدم معرفة المصير الذي آلت إليه تلك المؤلفات التي تحدّث عنها معاصروه ، أو روي عنها ، والتي ربما تكون قد ذهبت مع عشرات آلاف كتب التراث الأخرى التي أتلفها هولاء المغولي عام ٦٥٧ هـ ، من جملة ما أتلف ودمر من معالم بغداد ومحتويات مكنتها ودور العلم فيها .

ولعلّ من لطائف ما أنشد أبو اليسر الرياضي لنفسه ، من شعر
 طويل ، كتب به إلى أخٍ من صقلية إذ صار بها ، هو :
 تسمع أبا العباس إن كنت سامعاً مقالات جزالٍ كثير التجارب
 مواعظ من (لبّ)^(١) الكلام كأنها جواهر عقدٍ في نحر الكواعب
 فإني صحبت الناس مذ كنت ناشئاً على خلقٍ مادمه قطّ صاحب^(٢)
 وعاشرتهم ما بين أقطار كابلٍ إلى طنجةٍ أقصى بلاد المغرب
 وطوّفتُ آفاق العراق برهة إلى الحجز من نجدٍ إلى أرض مارب
 وصرت كأنني الخضر في كلّ بلدةٍ مسير النجوم^(٣) السابحات الثواقب
 وكاربت أهوال الزمان (وأهله)^(٤) وقاسيت في الدنيا صنوف العجائب
 فلم أر ذلاً كإغترابٍ وفرقةٍ ولم أر عزّاً كاجتماع الأقبارب
 ٩ - لم أكتشف أية تفاصيل تتعلق بترجمة « الرياضي الابن ،
 بُرّيه » بل ربما أستطيع الجزم بعدم توفرها . ولذلك أعتقد انه بالإمكان
 اعتبار ماسيرد عن « بريه الرياضي » هنا ، نواة لأول ترجمة تُعرف له
 حتى الآن ، وهي مستخرجة ومستوحاة من مقدمته في « تلقيح
 العقول » ومن أشعاره التي وردت في كتابه المذكور ، وفي
 « المنصورية » ، وكذلك من ترجمة أبيه « إبراهيم الرياضي » .

هذا مختصر ما استطعت التوصل إليه من نتائج حول هذين
 الشعارين الرياضيين : إبراهيم و بُرّيه . ولقد أضفت إلى ذلك كلّ
 ما وجدته على صلة بهما ، سواء في ذلك : الزمان ، والتاريخ ، والصلات

(١) وضعتُ هذه الكلمة مؤقتاً ريثما أتمكن من قراءة الكلمة الأصلية في المخطوطة .

(٢) لعلّها : صاحبي .

(٣) في الأصل : النجم .

الشخصية ، والشخصيات المعاصرة لها ، وآثارها ؛ فوجب عليّ عرض كلّ ذلك في كتاب شامل ، أصبحت في آخر مراحلها ، منسّقاً على الوجه التالي :

أ - فكرة موجزة عن ترجمة المنصور بالله ، والمعز ، الفاطميين ، وعن عصرها ومجالسها الأدبية .

ب - الرياضي الوالد ، أبو اليسر إبراهيم : ترجمته ومصادرهما ، والنماذج الوحيدة التي اكتشفتها من أشعاره .

ج - الرياضي الابن ، بُرَيْه بن أبي اليسر : نواة ترجمته ومصادرهما ، والنماذج الوحيدة التي اكتشفتها من أشعاره .

د - تحقيق كتاب المنصورية .

هـ - تحقيق كتاب تلقيح العقول .